



التاريخ : 25/8/2020- آخر تحديث : 1:51

مذكرات الماريشال ليوطي عن المغرب 18 : ما قيمة ميناء الدارالبيضاء بدون سكة حديد وكهرباء؟



أواصل هنا، في هذه الفسحة الجديدة، الخاصة برمضان 1438 (الموافق لسنة 2017)، ترجمة مذكرات الماريشال ليوطي، الخاصة بمهامه في المغرب. بعد أن ترجمت منذ سنتين أجزاء كبيرة منها ممتدة بين سنوات 1912 و 1917. وهي مذكرات هامة جدا، كونها تعنينا كمغاربة، كونها تقدم لنا معلومات دقيقة عن كيف تشكل المغرب الحديث بعد احتلال فرنسا وإسبانيا لبلادنا، إثر توقيع معاهدة الحماية يوم 30 مارس 1912، والتي مرت عليها الآن 105 من السنوات. وأهمية هذه المذكرات، كامنة، ليس فقط في كونها وثيقة تاريخية، بل أيضا في كونها كتبت من قبل صانع قرار، لم يكن عاديا قط في تاريخ المغرب الحديث، أثناء وبعد صدمة الإستعمار، الماريشال هوبير ليوطي، أول مقيم عام لفرنسا بالمغرب.

لقد جاء إلى المغرب بعد سنوات قضاها في مدغشقر ثم بالجنوب الغربي للجزائر عند منطقة بشار، وبعدها بمدينة وهران بالجزائر، ليمارس مهام المقيم العام بالرباط ل 14 سنة كاملة. وهي أطول فترة قضاها مقيم عام فرنسي بالمغرب. ليس هذا فقط، بل أهميتها التاريخية أنها كانت مرحلة تأسيسية لشكل الإستعمار الفرنسي في إمبراطورية كان لها منطقها

الدولتي في التاريخ، في كل الشمال الغربي لإفريقيا، هي الإمبراطورية الشريفية المغربية. وأن كل أساسات الدولة الحديثة المغربية قد وضعت في تلك المرحلة، على مستوى إعداد التراب، أو التنظيم المالي، أو القضاء، أو التعليم أو الفلاحة أو المحافظة العقارية أو الجمارك. ومن خلال ما دونه في مذكراته نتتبع بدقة كيف ولدت كل تلك الترسانة التنظيمية للدولة المغربية الحديثة، بلغة صاحبها التي لا تتردد في وصف ذلك ب «العمل الإستعماري»، المغلف بالدور الحضاري. وهي شهادة فيها الكثير من جوانب الجرأة الأدبية التي تستحق الإحترام. ثم الأساسي، أنه كرجل سياسة كتب شهادته وأرخ للأحداث عبر مذكراته الخاصة، من وجهة نظره، ولم يلد بالصمت، بل كان له حس تأريخي، يتأسس على إدراكه أنه يسجل كلمته للتاريخ.

لقد صدرت هذه المذكرات أول ما صدرت سنة 1927، أي سنة واحدة بعد مغادرته المغرب (بقي مقيما عاما بالمغرب من 1912 إلى 1926). ثم أعيد نشرها سنة 1944، في طباعة رابعة، قبل أن يعاد نشرها من قبل كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة 2012، إحياء للذكرى 100 لاختيار الرباط عاصمة للمغرب.

لنستمع لصانع من صناع التاريخ المغربي الحديث والمعاصر، كيف يروي قصة الأحداث من وجهة نظره. أو كما قال الزعيم اليساري الفرنسي فرانسوا ميتران عن مذكراته الخاصة هو: «هذه هي الحقيقة من الجهة التي كنت أنظر منها». أي أن للحقيقة دوما جهات أخرى للرؤية والنظر، يكملها عمليا المؤرخون.

الدارالبيضاء: 15 يوليوز 1919
(تتمة)

إن اليوم، مناسب للتذكير ببعض التاريخ.

حين وصلت إلى المغرب سنة 1912، كنت غير متحمس كثيرا لإمكانية إنشاء ميناء بالدارالبيضاء. فقد بقيت سجين موقف غير متحمس منذ إنزال 1908. بينما كانت الجهات المعنية بباريس رافضة للفكرة. كنت أستحضر تجارب أخرى سابقة، لنا، في مستعمرات أخرى، حيث انغمسنا في إنشاء مشاريع موانئ، لم تنجح، وصعب علينا التخلص من شرنقتها وتبعاتها. فكنت حريصا على أن لا أقع في نفس الخطأ. ورغم كل هذا التهيب، اقتنعت بسرعة، أنها هنا يجب إنشاء الميناء، حتى وإن كنت متهيبا من توفر الإمكانيات لتحقيقه. لكنه السيد «دولير»، الذي أقنعني، بعد أسابيع من الدراسات. لقد قال لي: «أنا متأكد أنه سيتم إنجاز هذا الميناء في أحسن الظروف. فقد أشرفت على من هو أصعب وأخطر منه بكثير».

هذا لم يمنع، شهورا بعد ذلك، بعض الجهات ذات الحجية المجربة، من التشكيك في فائدة ذلك المشروع، مقدمين دفوعات تقنية جد مفحمة، ما جعلني (وعلي الإعتراف بذلك)، أنساق أكثر لقرار وقف إنجازه وإلغائه. ومرة أخرى كان تدخل السيد «دولير» من أعادني لركوب المغامرة، بعد أن بدد كل أسباب شكي. فليس هناك شخص تدين له الدارالبيضاء بمينائها غيره، وعليها أن تظل ممنونة له إلى الأبد.

سيكون غاضبا مني، أنني لم أذكر بدور مساعديه الأقربين. وإذا كان صعبا ذكر أسمائهم جميعا، فإنني سأتوقف عند المهندس فرانسوا، الذي انخرط بكامل جوارحه، في هذه المغامرة، منذ البداية. ثم المهندس الرئيس السيد ديلبي، المتخصص بكل متعلقات الميناء، والذي انخرط بكل جوارحه في إنجازه هو الآخر.

هناك، إسم، لا بد أنكم ستؤاخدونني إذا لم أشر إليه، وهو السيد إدوارد بيللي. ذلك، أنه رغم عدم تحمله مسؤولية مباشرة في ملف الميناء، فإنه قد كان على صلة وثيقة بكل ما يرتبط بمجال الأشغال العمومية بالمغرب. والواجب يفرض علينا استحضار ذكراه. إذ، كلكم تذكرون الظروف التي غادرنا فيها، مكرها، بعد أن استدعاه السيد تارديو، مكلفا بتتبع وإنهاء التعاون مع أمريكا. وفي تلك المهمة العظيمة، ذات الإرتباط الوثيق بمصلحة أمتنا وتحقيق النصر (في الحرب العالمية الأولى)، فإن السيد بيللي قد أبان عن حنكة عالية. ذلك، أن كفاءته المهنية، وحسه العملي كرجل صناعة، قد تضاعفا مع المشاريع التي دخلها ذات الأفق الشاسع.

لقد أرسل لي من مدينة نيويورك رسالة ذاتى نفحة بيداغوجية. لقد أدمجني معه في نمط الحياة الذي انخرطت فيه تلك البلاد ومشاريعها. ورغم تحوطه من السقوط في الأحكام المتسرعة، ومن الرغبة في تقليد ما لا يقلد، فإنه كان مبهورا بحجم قوة الإنتاجية هناك، وبتبعية الوسائل للهدف، ثم الرؤية الموسعة للملفات. لقد كتب، مثلا، يقول: «إننا حيث نقيس ب

100 كلمتر، هم يقيسون ب 1000 كلمتر. وحيث نحسب بأفق 10 سنوات، هم يحسبون بأفق سنتين. وذلك لأنهم غير غارقين في الصيغ العتيقة أو القوالب الجاهزة أو في بيروقراطية الإدارة التجزيئية، المعقدة والبالية».

لقد وعدني بزيارة قريبة لنا. وأنا أنتظره حتى يساعدنا في إيجاد الصيغ التجديدية المستندة على طرائق جديدة. لقد وعدني بتخصيص أسبوعين للمغرب، ولقد توصلت منه بتلغراف يؤكد وصوله يوم فاتح غشت، في ذات يوم وصول خبر وفاته العبثية بسبب حادثة حصان. إنها خسارة كبيرة لفرنسا التي كان واحدا أن أوفى خدامها. وهي خسارة كبيرة أيضا للمغرب. لكننا سنظل نستمد الطاقة من الأثر الذي خلفه فينا.

علينا أن لا نتوهم، أن الرصيف الجديد يمثله لذاته منجزا. بل إن قيمته كامنة في شكل توظيفه. حقا، هو منجز معنوي هام، إزاء من ظلوا يشككون في إمكانية إنجاز ميناء بالدارالبيضاء، لكن قيمته كامنة في ما سيلي إنجازه. فهو لا يمنحنا ميناء. فالميناء لا يزال مشروعا مفتوحا، يتحدانا، أمام محيط لا يزال حرا، يستوجب إنجاز ذراعين مزدوجين للأرصفة، بما يستتبعه ذلك من واجب إنجاز الأحواض وردم البحر لخلق مساحات أرضية جديدة وآليات الإشتغال.

بل، ليس ذلك فقط. فالميناء ليس سوى بابا مفتوحة، لا قيمة لها سوى بما يلج عبرها دخولا وخروجا، وأن يكون منفذا لتصدير المواد المحلية واستيراد الأجنبية. والحال أن تلك المنافذ لا نملك منها سوى البدايات. صحيح أنه قد أصبحت لنا شبكة واعدة من الطرق، لكنها تحتاج إلى تطوير. ولنا خط سكة حديد عسكرية، الذي بفضل العمل الذكي للسيد بورسو، قد وهبنا نتائج اقتصادية غير متوقعة، وهي ليست، رغم كل ذلك، سوى قطرة ماء. ونحن لا نمتلك بعد خطوطا عادية للسكك الحديدة، لأن الإتفاقيات الدولية تمنعنا من إنجازها. مثلما أننا لا نتوفر بعد على شبكة الطراموي ولا على محطات الكهرباء. والآليات الفلاحية بالكاد بدأت تظهر. بالتالي، فإن المنجز المنتظر، هو من الضخامة الهائلة.

لقد قلت لكم، إن خطيب اليوم، هو هذه الكتلة التي ندشن. وأكاد أسمعها تقول لنا: «نعم، أنا كتلة من ألف متر، وأفخر بذلك أكيد. لكنني لا أتوهم كثيرا، فلست سوى قطعة كتلة بئيسة. لا قيمة لي سوى بتعزيزي بآلاف الكتل الأخرى. وذلك لن يكون مفيدا سوى بإنجاز آلاف الكلمترات من السكة الحديدة وآلاف البواخر وآلاف الكيلواط من الكهرباء».

لقد صدقت هذه الكتلة في ما تقول. لنصخ السمع إليها. فميناؤنا لوحده لن يكون سوى بابا مفتوحة على منزل بدون ممرات، وعلى حيطان بدون مداخل.

إن هذا اليوم، لا قيمة له بالنسبة لنا، سوى إذا كان محفزا يجعلنا نخرج مقتنعين أن عملنا لابد أن يكون منتجا، ومنجزاتنا سريعة الأثر، ومبادراتنا فعالة. إني أعول عليكم جميعكم، مصالح ومؤسسات وغرف تجارية ورأي عام، لمساعدتي للسير على هذا النهج، وأن نقوم بالمعارك الحقيقية، وأن نتجاوز القلاع الفاسدة التي نجدها عادة مبتوثة بيننا وبين منجزاتنا.

الكاتب : إعداد: لحسن العسبي

بتاريخ : 16/06/2017

أخبار مرتبطة